المعتوه

العنوان: المعتوه (رواية)

الكاتب: بهيليل فضيلة بالاشتراك مع طلبة السنة الثانية ماستر

دراسات أدبية. دفعة: 2021-2022 و 2022-2023

المركز الجامعي صالحي أحمد بالنعامة.

تدقيق لغوي: د/ فضيلة بهيليل.

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي: محمد جرديني.

الطبعة الأولى السداسي الأول 2023.

ISBN: 9782-493312-86-0

EAN:9782493312860

دار الأمير للنشر والتوزيع والترجمة Maison D'édition ElAmir

3-Boulevard Charles Moretti.

13014 Marseille

assoelamir@gmail.com

الهاتف:0033760734119

الآراء الموجودة بالكتاب لا تعبّر بالضرورة عن الجهة الناشرة

— جميع الحقوق محفوظة –

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

EL AMIR

MAISON D'ÉDITION

إهداء

إلى طلبتي الأعزاء الذين آمنوا بهذا العمل فشاركوني أفكارهم وأحلامهم وراحوا يجربون معي متعة السرد.

د- بهيليل فضيلة

تقديم

إن الفاعلية في الكتابة تجعل من الحروف كلمات دالّةً بقوة في عالم المعنى، وبدورها تلك المعاني تتسق في الجمل المختلفة، بناء وتركيبا لتُشكِّل صورة ذهنية- للنص المحمول من خلالها- تصل للقارئ. كما أن فهم علاقة الدال(نصا) بالمدلول(معنى) يُدخل المتلقي في تشكيل الدلالة الفعلية للنص المكتوب.

وكان هذا النص مكتوبا على ورق لعقود وأجيال، بل لعصور وحقب، تخطه أنامل الكاتب في بيئة وسياق معينين، وسرعان ما تتلهف الأيدي لاقتناء النسخ المطبوعة المبثوثة في رفوف المكتبات لتكمّل الشطر الثاني لثنائية النص (الاتساق والانسجام)، فلا انسجام لنص دون قارئ يتلقى المكتوب قراءةً ليفهم مغزى معينا يريده الكاتب.

ثم انتقل من الورق على اختلاف أنواعه إلى العالم الافتراضي؛ أو كما يسمونه الإلكتروني، فظهر لنا نوع جديد من الأدب. مع العلم أن الدارسين اليوم لا يكادون يجمعون على مصطلح واحد. إذ أُطلق عليه مصطلحات عدة، منها: الأدب

الإلكتروني، الأدب الافتراضي، الأدب التفاعلي... إلى غير ذلك من المصطلحات التي إن استقصيناها وجدنا اختلافا بينها لا محالة..

وعليه فإن الذي يهمنا من هذا التقديم هو ما يحويه هذا العمل لكونه أدبا تفاعليا بما تحمله الكلمة من معنى التفاعل. فقد حملت الدكتورة والناقدة الأديبة "**بهيليل فضيلة**" مشعله في المركز الجامعي صالحي أحمد بالنعامة -الجزائر-حيث تصدرت لتدريس مقياس "**الأدب التفاعلي**" في العامين الدراسيين على التوالي 2022/2021 و2023/2022 لطلاب السنة الثانية ماستر، وأنشأت صفحة على الفيسبوك أسمتها "**الرواية التفاعلية**"، ضمت إليها جميع الطلبة المعنيين بالمقياس ثم جعلت تنشر الفقرة والفقرتين ليتفاعل الطلاب معها ويكتبوا في التعليقات أسفلها ما يكمّل الفكرة ويخدم النص التفاعلي سردا ومعنى...

حتى أتت على نهاية العمل الذي شكلت للطلبة تصورا حوله من خلال المحاضرات التي قدمتها لهم اجتهادا منها ورغبة في ولوج عالم الأدب التفاعلي الواسع.

العمل عبارة عن رواية تفاعلية عنوت بـ"**المعتوه**"، تقدم من خلالها الدكتورة فضيلة صورة واضحة وجلية عن عملية التدريس الحديث عن طريق التفاعل، وما الأدب إلا تفاعل بين النص ومتلقيه، تأثيرا وتأثرا، أين تناوبت هي وطلبتها على فعل السرد لتتشكل في الأخير رواية "**المعتوه**" بكل أبعادها وتولد من رحم التكنولوجيا المعاصرة.

قدمت لنا في هذه الرواية التفاعلية أنموذجا رائقا يفتح شهية المتلقي للاستزادة من هذا التمازج الحاصل والآني بين أطراف عدة في تكوين النص الأدبي، بعد أن كان التشكيل مقصورا على كاتب واحد في غالب الأحيان صار عملية اشتراك وأخذ ورد بين مجموعة من الطلاب تفصلهم المسافات وتختلف بينهم الأنظار والتصورات... وهذا التفاعل السريع تجاوز كل التصورات القديمة التي حاولت استكناه مفهوم النص الأدبي.

وما لنا إلا تثمين هذا المجهود والاحتفاء به درسا ومناولة عسى أن يكون له في القريب العاجل ثمار نرتضيها ونأملها في طلبتنا بالجامعات الجزائرية ليرتقوا بالأجناس الأدبية وفق ما تقتضيه ضرورة العصر ومتطلبات التطور الحضاري والعلمي...

كتبه/ صلاح الدين رقيق

المشرية -ولاية النعامة- في: 2023/02/04

في حركة بطيئة حمل اللقمة بين أصابعه وسمية الصغيرة بفرح تراقبه، ناولها إياها مداعبا وهو يدرك أنه بعد لحظات سيغادرها ليعود إلى الثكنة العسكرية. كان آذان العشاء يرفع على مسامعهم. أسرعت هاجر بوضع حبات "المعكرة"[1] في حقيبته زادا، وبعض من التمر والحلوى التي صنعتها خصيصا له. وجهها مخطوف الملامح، وقلبها الواجف القلق على زوجها الذي بدا الليلة أقل حديثا يرسم تغريدة حزن، وحدها سمية ببراءتها وفوضاها الطفولية قطعت ذلك الصمت المهيب.

جلست أمه على يمينه تنظر خلسة إلى يده المرتبكة التي يداعب بها خدّ صغيرته وبيمناه يحمل لقمة يناولها فمه كأنها آخر ما سيأكله من يد حبيبته هاجر، هاجر التي كثيرا ما كان يعيب عليها عدم إتقانها للطبخ، ولا يتوقف عن إبداء ملاحظاته حول كل ما يوضع بالمائدة، الآن تغير ذوقه في الأكل، صار كله يختصر فيما تحضره هاجر مهما كان بسيطا، لأنه صار يتذوقه بقلبه قبل لسانه. اكتشف ذلك عند أول يوم تذوق فيه الأكل بالثكنة واعترف لصديقه الجيلالي بعد مرور شهرين على تجنيده بالخدمة الوطنية

[1] أكلة تقليدية صحراوية تصنع من الدقيق والتمر والزبدة.

أنه لا ألذ من أطباق زوجته بعد والدته، فرد عليه الجيلالي حينها محاولا التخفيف عن صديقه:

-"ستنتهي فترة التجنيد وتعود تأكل من يد هاجر حتى التخمة، كُل يا صديقي، ستشتاق هذا الطبق بعد لحظات". قال ذلك وراح يبتلع بسرعة ما وضع على الطبق الحديدي بعد تدريب مرهق.

قبّل والدته على خدّيها ورأسها، فعانقته بكل عاطفة الأمومة كأنه لا يزال طفلا صغيرا، بينما خنق هو عبراته المكابرة وراح يستنشق رائحتها التي لم تتغير، تلك الرائحة الممزوجة بالصبر وببخور يعطر غرفتها كل جمعة ليظل عالقا بخزانتها وأغراضها. حمل حقيبته السوداء محاولا التملص من يد صغيرته التي عانقها طويلا مقبّلا كفيها الصغيرتين وخديها وجبهتها، بابتسامة مصطنعة قال:

-"اذهبي عند الجدة حبيبتي، لحظات وأعود"، وفي سره: "شهران ونصف..وقد..لا أعود.."

ثم حمل حقيبته وسار نحو الطريق لينتظر الحافلة وهو مشغول البال بخصوص عمله وكذا عائلته التي تركها خلفه. وبينما هو ينتظر وقف إلى جانبه رجل وسأله:

-"هل مرت حافلة ما، أم ليس بعد ؟".

نظر إليه وأجابه بنبرة صوت حزينة:

-" لا ليس بعد ".

فاحتار الرجل في أمر الحافلة، ثم اتجه إلى مقعد وقد انتبه إلى حقيبة سفر كانت تأخذ مكانا منفردا على إحدى كراسي الانتظار. سأله مرة أخرى:

-" ما هي وجهتك؟"

وقبل أن يرد كان صوت حافلة قادمة باتجاههما قد ملأ المكان الشبيه بمحطة، صعد الرجل بينما بقي هو يتأمل المكان كأنها آخر نظرة يحفظها لتبقى راسخة في ذهنه قبل أن يصعد ويجلس بجانب النافذة.

أقلعت الحافلة وعم السكون قليلا داخلها، غير أن عقله لم يتوقف عن التفكير كأن ضجيجا كان يضطرب داخله؛ صوت سمية الصغيرة، صوت أمه وصوت هاجر. في كل ثانية يتخيل أصواتهم وصورهم متمتما "متى سيأتي موعد لقائهم مجددا؟".

التفت خلفه، قلبه يرتجف من شدة التوتر والقلق ثم أزاح الضباب على زجاج نافذة الحافلة، ليسترجع ذكريات خروجه من المنزل، لحظات الوداع بينه وبين عائلته، نظرات الشوق والحب التي تبادلها مع زوجته، كأنها بريق سيوف في معركة الكل فيها خاسر، كل شي كان ساكنا في تلك اللحظة، إلا نبض قلبيهما.

حاول تشتيت تفكيره وإبعاده عن تلك اللحظة. وإذا به يرى طيفا يلاحق مسار الحافلة كأنها ابنته الصغيرة تلحق به، فنادى بصوت خافت :"سأعود يا ابنتي... سأعود" .

وهو على تلك الحال حتى ربت على كتفه قابض الحافلة، ليعطيه التذكرة، فالتفت إليه معتذرا...

-"معذرة يا أخي، ظننت أنني سددت تكاليف التذكرة".

-"لابأس".

دفع ثمن التذكرة وعاد مرة أخرى ينظر من النافذة، يتيه في الطريق التي لم تكن تظهر إلا بالقدر الذي تمنحُهُ لها أضواء الحافلة، يحدث نفسه: "لماذا صار الطريق طويلا بهذا القدر؟ ودون نهاية؟ ". أغمض عينيه وتاه يرسم بخيالاته صورا وأحلاما يتوعد

بتحقيقها حين ينتهي من التجنيد، لم تكن مغادرة بيته سهلة كما تخيل. راح يتتبع قدره بخطوات متثاقلة نزل من الحافلة التي قطعت به مئات الكيلومترات ليعاود ركوب حافلة أخرى توصله مباشرة لمقر الثكنة العسكرية بباتنة . دقائق انتظار ركاب آخرين قبل أن تنطلق لم يشعر بها، كان خارج الزمن والمكان، أسند كتفه على النافذة شارد الدهن ووشوشة لا تفارق أذنيه "شهران ونصف... وقد لا أعود".

تسللت عبرات مكابرة على خده كلما تخيل أنه قد لا يعود لعائلته مجددا وازداد خوفه وقلقه بتوغل الحافلة داخل غابة كثيفة تتدلى حبات زيتونها وتتساقط تاركة أثر الزيوت على الطريق.

ها هو مشهد الفراق يتكرر اليوم أيضا وصوت سمية يأتيه كنشيد وطني يقرع داخل قلبه وروحه فيهز كيانه، تماما كذلك النشيد الذي يرن بقلبه قبل أذنه كل صباح ومساء، منبعثا من الساحة المركزية للثكنة:

وطني وطني

غالي الثمن

روحي مالي

نفسي بدني

وأنا الحامي لك في المحن

لم تنته أيام التدريبات العسكرية حتى لاحظ جميع من معه في الثكنة العسكرية تغير وتدهور حالته النفسية التي تزداد يوما بعد يوم منذ وصوله، تاركا خلفه ابنته الصغيرة ووالدته كأنه وداعه الأخير.. وأنه لن يراهم مرة أخرى. ازداد قلقه وأصبحت تراوده أحلام مخيفة كل ليلة، فزادت من انزوائه وتوتره.

حاول الجيلالي كثيرا معرفة ما يحدث لصديقه عبد الله الذي ترك فراغا كبيرا بانزوائه عنهم وعدم مشاركتهم سهراتهم كما كان يفعل سابقا. هو يدرك أن ما يقلقه ليس ابتعاده عن أسرته الصغيرة وإنما خبر ظهور نتيجة مسابقة التوظيف و نجاح عبد الله للالتحاق بمنصب قار في المؤسسة الاستشفائية التي تبعد بضع كيلومترات عن المدينة، من الجيد أن إعلان النتائج تزامن وعطلته غدا ليتمكن من زيارة مدير المؤسسة ويشرح لهم وضعيته بالخدمة الوطنية.

أخيرا سيسعد عبد الله هو وعائلته، سيعمهم الفرح ويتصالح مع حظه الذي كان يلعنه باستمرار، لم يغمض عبد الله عينيه تلك الليلة التي وصل فيها لمدينته، ولم يأبه بالأحلام الخيالية التي كانت تراوده بين هنيهة وأخرى لأنه يعيش أكبر أحلامه واقعا وحقيقة، و بعد ليلة مليئة بالفرح والابتسامات تنفس الصبح معلنا بداية يوم جديد وبداية توديع عبد الله وعائلته للأيام العجاف، بعد أن أسهبت هاجر في تنويع طاولة الإفطار وكأنه احتفال استحضرت به يوم خطوبتها من عبد الله الذي توجه هو الآخر لباب الخزانة وراح ينتقي أجمل ما يملك من ثياب، وكعادته لا يقتنع به حتى يسأل زوجته، سار عبد الله في خطوات متسارعة نحو المؤسسة لتوقيع محضر التنصيب وهي خطوة أولى قبل الالتحاق الرسمي وفي قلبه أمل أن يقبل المدير عذره في إبقاء منصبه ريثما تنتهي مدة الخدمة الوطنية .

انطلق عبد الله إلى مكتب المدير والتبريكات تنهال عليه من كل صوب:

_" أهلا ومرحبا بالسيد عبد الله"، قال المدير.

-"شكرا جزيلا، تشرفت". رد عبد الله.

ثم أكمل بلباقة:

-" لقد استلمت بالأمس استدعاء بضرورة التقرب لسيادتكم الموقرة لغرض توقيع محضر التنصيب".

-"نعم بالتأكيد، ولكن بقي عليك فقط أن تثبت وضعيتك اتجاه الخدمة الوطنية". قال المدير.

تلعثم عبد الله قبل أن يواصل:

-" الحقيقة... لازلت لم أنه بعد مدة الخدمة الوطنية وأردت لو تكرمت ...".

قاطعه المدير:

-" المعذرة أخي... لا يمكن أن ينتظرك المنصب، سيتم استدعاء الناجح الاحتياطي في حال لم تحضر بطاقة تسوية وضعك اتجاه الخدمة الوطنية".

-"اسمع يا عبد الله...." تابع المدير:

-"سيلتحق زملاؤك بمناصبهم اليوم وسأمنحك مدة أسبوع كامل من أجل أن تلحق بطاقة تأدية الخدمة الوطنية أو الإعفاء أو تقصى نهائيا من الوظيفة".

-"بإذن الله"، رد عبد الله الذي كان كلما تورط يستنجد بدعاء أمه وكم تمنى لو تسانده بدعائها الآن.

تشجع للحظات، جمع أحلامه وغادر المكتب، ثم انهار حين عانقه الرواق الشاحب طلاؤه، وأرعبه شبح الإقصاء إن لم يثبت وضعيته.

رجع أدراجه مستسلما للقدر وهو لا يفكر بنفسه بقدر ما يفكر في حجم الحسرة التي يحملها إلى أمه وإلى زوجته هاجر، لتفاجئه هي الأخرى بصبر مَن كانت تتوقع النتيجة "لا تقلق يا عزيزي عساه خير".

انقضت الخمسة عشر يوما وعاد عبد الله بحسرته وحزنه وخيبته إلى الثكنة. مستلقيا بزيه العسكري يلعن حظه التعيس كل وقت و حين، ولم يكن ليستطيع التخلص من وساوسه خاصة وأن التعب تمكن منه نتيجة التمارين العسكرية المكثفة، فألقى بجسده على سريره الحديدي المهترئ في زاوية من زوايا الخيمة الضيقة والمظلمة قبل أن يزوره طيف هاجر الذي سرعان ما يختفي فيعود لاستحضار دعاء والدته ويستأنس به في كل مرة يشعر فيها باليأس .

وبينما هو على هذه الحال دخل صديقه في الثكنة العسكرية ومظاهر الحزن بادية على وجهه يريد أن يقول شيئا ولكنه متردد،

أحس عبد الله بالقلق وراح يسأله ما الذي حصل معه !! فانهار صديقه حزينا وبالكاد ينطق:

-"بلغنا الآن ....خبر سيء... أمك..... توفيت في حادث سيارة".

لم يستوعب عبد الله ما قال له صديقه،صحيح أن الموت حق ولكنه لم يكن ينتظرها في تلك اللحظة وبتلك الطريقة، كان خائفا ألا يعود هو، ولكن أمه الآن هي من رحلت، وبحادث أيضا.

ما هي إلا لحظات حتى استيقظ عبد الله مرعوبا يتعرق من هول ما ألمّ به جراء كابوس جعله يتكلم بتمتمات لم يكن ليفهمها أحد من المحيطين به، وبدا لهم وكأنه أصابه الجنون، نادوا على النقيب بسرعة صرخ أحد الجنود:

-"يا قائد يا قائد.". هب الجميع نحو مصدر النداء يخالون أن شخصا قد مات، فإذا بهم يرون عبد الله يحمل سلاحه ويضعه أسفل ذقنه، صارخا:

-"أنا لا أخشى الموت وإن كنتم لا تثقون فيما أقول بإمكاني أن أبرهن لكم".

ثم ضغط على الزناد ولكن الطلقة لم تخرج، كان الجميع يحاول تهدئته. ولحسن حظه أنه لم يضغط بالقدر الذي يُخرج

الرصاصة. لم يشُك أصدقاؤه أن عبد الله يعاني من نوبات نفسية حادة جراء عملية التمشيط التي قتل فيها أربعة من أصدقائه بالثكنة، كانت رؤوسهم مفصولة عن أجسادهم وملابسهم العسكرية برقعتها الدماء، ولم يستطع التخلص بعد من تلك الصور. أحيل عبد الله بعد الحادث مرات عديدة إلى طبيب العيادة النفسية ليتم نقله في الأخير إلى العيادة النفسية التي يعمل بها الجيلالي كونها تزخر بالعديد من الاختصاصات الطبية، خاصة ما يتعلق بالأمراض العقلية والأعصاب.

في الآونة الأخيرة تدهور وتراجع مستوى أداء عمله تجاه وطنه حتى الجيلالي صديقه المقرب أصبح لا يطيل الحديث معه ولم يعودا كسابق عهدهما. ذهب الجيلالي مستعطفا قائد الثكنة العسكرية أن يمنح عبد الله عطلة استثنائية ليرتاح مع عائلته لعل حالته النفسية تتحسن، وكان له ما أراد بعد فحوصات وإجراءات قانونية معقدة تم منحه فترة استراحة خاصة. شريطة ألا يسافر إلا بعد أن يتم تحويله وزملاؤه عصر اليوم الموالي إلى ثكنة بومرداس.

ركب الجنود أول الحافلة المخصصة لنقلهم إلى مكانهم الجديد، باتجاه بومرداس، وراح عبد الله يتخيل رحلته من

بومرداس إلى مدينته بالجنوب. أين تسكن تاج رأسه أمه... وحبيبته هاجر... وصغيرته سمية... أسرته الصغيرة. كانت المرة الأولى التي يحس فيها أنه بطل يحمي أهله و يحمي وطنه أيضا رغم الوهن الفكري والعضلي .

كان عبق آخر قبلة من زوجته يسكن ذاكرته، و يزداد عبيرها كلما اقتربت الحافلة من غابات بومرداس المبللة بمطر خريفي لترسم على نوافذ الحافلة وأنغام شوق تعبر فؤاده فتطربه.

اجتاحته دموع الشوق وفرحة اللقاء قبل أن يصرخ أحد الجنود:

-"إنه كمين.. إنه كمين".

نسي وطنه، نسي نفسه، وحدها لحظات وداع ابنته عندما كانت تقبض على أصابعه في فرح ارتسمت أمامه كأنها حقيقة.

استمر الشباك مع المنظمة الإرهابية ولم يسكت صوت الرصاص والرشاشات، تساقط الجنود واحدا تلوى الآخر وعبد الله يشاهد ما يحدث لكن هذه المرة زال خوفه وقلقه كأنما اعتاد

على الوضع، أو كأنه كان بحاجة إلى صدمة أخرى تعالج الصدمة الأولى.

اشتد الشباك أكثر ورأى أحد الزملاء في الثكنة أن وضع عبد الله في خطر، لأن الرصاص بدأ يتهاطل باتجاهه، وبينما هو متوجه إليه ليحذره أصيب برصاصة في كتفه أنقذت حياة عبد الله. أخده عبد الله إلى مكان آمن وحاول بما توفر لديه من وسائل وخبرة في مثل هذه المواقف أن يوقف النزيف كي يخفف من خطر وفاته، وعندما رأت الجماعة الإرهابية سقوط قائدها وفقدان عدد منهم، بدؤوا بالانسحاب.

طلب عبد الله النجدة بعد اتصال أحدهم بالثكنة فأرسلوا سيارات إسعاف نقلتهم إلى المستشفى، كان من بين الجرحى زميل عبد الله الذي التقاه حديثا، أين خضع لاحقا إلى العملية وكان عبد الله قلقا، يقول في نفسه "لولا هذا الشاب لكنتُ الآن في عداد الأموات".

مرت ساعات وهو في غرفة العمليات إلى أن خرج الطبيب مرهقا تتصبب قطرات عرق أعلى جبينه. قال:

-"لقد زال الخطر...صديقك بخير فقط يحتاج أن يظل تحت المراقبة حتى نطمئن على وضعه".

بعد أيام كان يكتفي فيها عبد الله بزيارة صديقه الجديد من خلف الزجاج، يطمئن على حالته ثم يعود. قرر الذهاب إلى الطبيب يستأذنه في الزيارة فوافق الطبيب وهو يطمئنه بأن صديقه سيخرج قريبا. دخل عبد الله إلى غرفته وبصوت يخالطة الحزن والارتباك قال:

-" الحمد لله على سلامتك، لقد أنقذت حياتي ولن أنسى موقفك هذا ما حييت". ثم أضاف :

-"اسمي عبد الله".

رد الشاب وهو يحاول أن يستند على الوسادة:

-"وأنا اسمي سعيد، تشرفت بمعرفتك...لا تشكرني هذا واجبي، أو لِنَقُل أول درس تعلمناه بالخدمة العسكرية ؛ حب الوطن والتضحية، ولو كنتَ في مكاني لفعلت نفس الشيء".

منذ ذلك اليوم الذي أنقذ فيه سعيد عبد الله توطدت علاقتهما وحكى عبد الله لسعيد تفاصيل حياته بحلوها ومرها، وكم

هو مشتاق لعائلته التي حالت بينه وبينها خدمة الوطن، اشتاق لصوت ابنته ولزوجته الحنونة ولأمه التي تدعو له في كل صلاة أن يرجع لها سالما ، ومثله سعيد فعل.

مضت الأيام في الثكنة بتعبها الذي كان يختزله الأصدقاء في السهر ليلا، وبحنين الأهل الذي عوضوه بحكايا السمر، تأخذ مكانا لها بذاكرة كل واحد منهم لتغدو لاحقا من أجمل ذكرياتهم رغم كل العناء. كان الثلاثة يشكلون فريقا متناسقا بين جد وهزل يقضون الأيام الطوال، وكل منهم يدعوا الآخر لزيارته بمدينته، الجيلالي يدعوهم لزيارة العاصمة وسعيد يدعوهم لزيارة أمه بدوار أزيّار بجيجل وأما عبد الله فقد كانت وهران هي المكان الذي وعدهم بزيارته وزيارة أماكنه السياحية واحدا واحدا ووعدهم أيضا بأن يتجول بهم في أرض توات مسقط رأسه وأرض أجداده.

ولأن أيام نهاية الأسبوع طويلة جدا بالثكنة، قرر عبد الله وصديقَيه القيام بجولة إلى مدينة تستقبل الحياة الجميلة، شوارعها تكتض بالسوق الأسبوعية، تسرق الزائر طاولات تعرض أنواع الملابس والأغراض بأسعار خيالية، ويتوافد إليها المشترون من كل الولايات.

صباح السبت كان غائما، تغطيه سحابات هاربة، وضباب أعلى الجبل. عبد الله ينفخ بيديه تارة وأخرى يفركهما، الجيلالي يهرب يديه داخل جيب سرواله. بينما سعيد ظل يمتص ما تبقى من سيجارته قبل أن يرميها على الأرضية المبللة ويصعد الحافلة.

وبما أن عطلتهم اقتربت لابد من اقتناء هدايا للعائلة والأولاد، ثم التنزه قليلا وتناول أطباق شهية بمطاعم تقليدية، هكذا تمت برمجة الجولة ليلة أمس.

لم يكن السائق وهو يثرثر مع القابض منذ انطلاق الحافلة يستطيع التركيز، كان يصرخ أحيانا ساخطا وأخرى يهدد محدثه، والركاب قلقون لقلقه دون أن يجرأ أحد على تنبيهه. ولحركة غضب فقد السائق السيطرة لتنقلب الحافلة مرات قبل أن تصطدم بشجرة عتيقة أوقفت تدحرجها نحو الوادي.

حصد الحادث أرواح ثلاثة أشخاص لقوا حتفهم داخل الحافلة بينما أصيب عشرون شخصا بجروح متفاوتة الخطورة، كان من بينها عبد الله. بعد نصف ساعة كانت سيارات الإسعاف قد نقلت الجثث و الجرحى. حالة عبد الله خطرة وروحه معلقة بين الحياة والموت.

كانت هاجر تجلس مع حماتها على طاولة الغذاء حين رن الهاتف الثابت يحمل خبر الحادث. فجعت الأم وبكت هاجر كثيرا قبل أن يؤكد لهما الطبيب لاحقا عجز عبد الله عن المشي مرة أخرى. وأنه سيضطر لاستعمال الكرسي المتحرك إلى أن يجمع مبلغ العملية التي ستجرى خارج مستشفيات الوطن. وحدها هاجر كانت تفكر في من سيعيل هذه العائلة بعد عبد الله، وكيف ستكون حياتهم.

مضى شهر وآخر ازداد وضع الأسرة سوءا. هاجر لا تكف عن التفكير في حل وحين عجزت فكرت في آخر الحلول وهو الخروج للشارع بحثا عن وظيفة توفر لهم لقمة العيش. وبعد ليلة ماطرة بالتساؤلات، خرجت تجوب المطاعم والمكتبات والإدارات إلى أن عثرت على إعلان معلق ببوابة المطعم يبحثون فيه عن خادمة تجيد طهو الأطباق المحلية.

دخلت هاجر المطعم بارتباك، تمد خطوة وترد أخرى، في قلق واضح. قابلت مدير المطعم الذي أخبرها أن العمال هناك كلهم رجال وأنها ستكون المرأة الوحيدة بينهم. ترددت كثيرا قبل أن تتذكر حال أسرتها وحاجتها لتوقع بعد ذلك عقد العمل.

على مضض استقبلت هاجر أول أيام عملها بعد أن أقنعت عبد الله بضرورته لتعيل أسرتهم الصغيرة التي أصبحت من مسؤوليتها وكذلك لتجمع المال لإجراء عملية جراحية لزوجها الذي يتألم بصمت. كانت هاجر قبل أن تذهب إلى العمل تقوم بواجبات بيتها أولا، ثم تتجه نحو عملها ولكن عند وصولها متأخرة كانت تتلقى توبيخا من قبل مدير المطعم مما كان يزعجها ويعكر مزاجها، والسبب الرئيسي الذي كان يضايقها كونها المرأة الوحيدة وسط رجال غرباء يجمعهم فقط العمل و لكن عند تذكرها سبب وجودها هنا تنسى كل شيء وتباشر العمل فورا.

هكذا كان روتين هاجر؛ تنظيف المنزل والطبخ، ثم الذهاب إلى العمل الذي تجني منه قوت يومهم، كانت امرأة صبورة، تتحمل مضايقات مديرها ومعاملته السيئة معها، لكن حين تتذكر أنه العمل الوحيد المعيل لأسرتها الصغيرة تصبر وتنسى كل همومها لأجلها، فقد عانت لتجد هذا العمل الذي أصبح يهدد استقرارها النفسي والجسدي.

كانت الوفود المرتادة على المطعم مختلفة الألوان والأشكال والثقافات، ونتيجة تعامل هاجر مع هؤلاء وأولئك أغنت رصيدها

التواصلي، إضافة إلى تكوينها لعلاقات صداقة جديدة، وقد أحدث هذا فارقا غيّر كثيرا في قناعاتها ونظرتها للحياة. كان من بين الزوار الذين يتمتعون بامتيازات خاصة "السيدة فريدة" التي تأتي كل يوم ثلاثاء للمطعم الذي كان صاحبه أحيانا هو من يشرف على استقبالها بمراسيم ما يستقبل به السفراء، أو يوصي هاجر بذلك، كانت طول الوقت تفكر فيمن تكون هذه السيدة التي يهتم بها صاحب المطعم كل هذا الاهتمام؟ أتراها زوجة شخص صاحب منصب وجاه؟

كيف استطاعت هذه السيدة أن تجبر رجلا على احترامها؟ كيف استطاعت أن تتمتع بهذه الكاريزما التي تبهر كل من يراها؟ أسئلة تتدافع كتيار عنيف على رأس هاجر.استسلمت لفضولها وتوجهت لطاولة فريدة متجاوزة الكل كأنها لا ترى غيرها، رحبت بها كعادتها، لكن هذه المرة دعتها للجلوس. تفاجأت هاجر من دعوتها وكأنها علمت بما يجول في عقلها:

-"هيا.... تفضلي بالجلوس".

تسمرت هاجر في مكانها فهي لا تعرف أي موضوع بالضبط يمكن أن تتكلم فيه مع سيدة تبدو من طينة الأكابر.

"-تفضلي بالجلوس".كررت فريدة.

جلست الاثنتان في شد وجذب لأطراف الحديث على نحو ما تجتمع عليه النساء، حتى أن هاجر نسيت أنها العاملة الخادمة وفريدة السيدة بل بدتا صديقتين. ما إن انتهين حتى بادرت فريدة بتقديم كتاب من تأليفها لهاجر وألزمتها قراءته، ألحقته بعرض مفاجئ لها من أجل الالتحاق بمنصب عمل في إحدى مكتباتها الخاصة بمرتب محترم، لتخلص هاجر في النهاية أن فريدة ليست كما توقعت صاحبة جاه أو بنت سفير ولكنها كاتبة ومبدعة. فرضت وجودها واحترامها بحرفها وأخلاقها.

ورغم أن هاجر صار اليوم آخر اهتمامها الكتب والكتابة التي كانت هاجسها أيام المراهقة، رأى عبد الله أنه من الممكن أن تكون هذه الخطوة بداية حياة مختلفة لها. وافق على ما عادت به هاجر وهو يرى كمية الحماس والاندفاع التي تغلغلت داخلها وهو ما غاب عنها منذ زمن.

في صباح ربيعي أرسلت فيه الشمس سهامها الذهبية، اختارت هاجر أجمل الثياب التي ستذهب بها للمكتبة الرئيسية لمقابلة فريدة ومزاولة العمل هذه المرة رفقة الكتب.

غمرت الفرحة نفس هاجر أثناء عرض السيدة فريدة من أجل العمل معها في المكتبة، فقد جاء اليوم الذي تنتهي منه من كل

الضغوطات والصعوبات التي كانت تواجهها أثناء عملها في الطبخ ، قامت هاجر بتجهيز نفسها من أجل العمل وهذه المرة في الكتابة والقراءة التي كانت هوايتها منذ صغرها، إلا أن الحياة قست عليها وأجبرتها على التوقف عن الدراسة، و إعانة عائلتها بحيث كانت الابنة الأكبر و إخوتها الصغار يحتاجون رعايتها بعد وفاة والدها، تم زواجها من عبد الله وها هي اليوم بعد طول عناء تسير في تحقيق نجاحها و حلمها وهي كتابة الرواية والقصص كما كانت تروي لأطفال الحي مساء ولأخوتها قصصا كل ليلة من تأليفها.

استقبلت السيدة فريدة هاجر بابتسامة لطيفة كسرت بها ستار الحياء والتردد اللذين كانا يبدوان على وجه هاجر.

-" مرحبا ،أهلا وسهلا بك"..قالت السيدة فريدة .

-"مرحبا أستاذة فريدة، شكرا لك ". قالتها هاجر في تلعثم وبصوت خافت . هذه المرة أيضا تكون فيها خارج جدران بيتها الدافئ بعيدة عن صغيرتها التي تركتها مع جدتها، بعيدة عن عبد الله وهو بحاجة لها.

"ماذا تفعل هاجر يا ترى؟ وكيف وجدت عملها الجديد؟ أتمنى أن يكون أفضل حالا من عملها الأول"، قال عبد الله محدثا روحه القلقة.

-"ستكون بخير لا تقلق، هاجر قوية وفحلة وتعرف كيف تتصرف".قالت أم عبد الله.

-"هل سمعتني يا أماه؟".

-"نعم، سمعتك من همس شفتيك، كذلك كنت دائما أسمعك وأفهمك حتى دون أن تتحدث". ردت عليه أمه، وهي تمسح على شعره بيد وبالأخرى تُجلس حفيدتها سمية بحجرها.

عبد الله اليوم صار مقعدا على كرسي متحرك، وفي قلبه حسرات كثيرة ...حسرة الكرسي الذي يكبل قدميه، حسرة الزوجة التي أصبحت تعيله وحسرة الدنيا التي أدارت ظهرها له. لكن وجود هاجر مع الكتب كان كالبلسم على الجرح أو كنور يطرق نافذة معتمة بظلام دامس، هو يعرف مدى حب هاجر للكتب وتعلقها بالقراءة، ولا ينسى حلمها في أن تكمل دراستها التي تركتها لظروف معيشتها.

باشرت هاجر عملها في المكتبة حيث كان عملها يقتصر على تصفيف الكتب برفوف المكتبة وجردها. وفي أوقات فراغها كانت تقرأ صفحات من رواية أو قصائد من دواوين مختلفة، نصوص قديمة تعود للعصور الأدبية الأولى وفي رفوف أخرى كتب حديثة ومعاصرة، بحيث حركت تلك القراءة قلمها وبدأت تخط مذكرة يومياتها و حياتها مع عبد الله.

عادت لتضم أناملها القلم الذي كان مرميا على المكتب مدة طويلة. خطت أول السطور عن حياتها، بحلوها ومرها منذ كانت طفلة صغيرة إلى أن اشتد عودها وأصبحت مفعمة بالنشاط والحيوية، وصولا إلى تعرفها على عبد الله وكيف تزوجت به، ثم إنجابها لابنتهما سمية.

كل يوم تدخل فيه هاجر إلى مكتبها لمزاولة عملها ترفع قلمها المخفف لآلامها وتكتب سطورا عن حياتها اليومية بالبيت من جهة وبمكان العمل من جهة أخرى.

لاحظ عبد الله هذا التغيير الذي طرأ على زوجته،كانت أحيانا تراودها أفكار عن الكتابة في البيت فتضع ما بيدها وتهرع إلى القلم لتكتب ما جاء في مخيلتها مخافة أن تذهب تلك الأفكار حالها حال من يهوى الكتابة. نعم فهاجر كانت تهوى الكتابة وتحب القلم،

أحيانا حتى وهي تطبخ الطعام تراودها كلمات وتنساب جمل تهز روحها فتتزاحم داخل عقل أنهكه التفكير، تسرع إلى الدفتر والقلم تكتب وتكتب حتى وهي واقفة أحيانا. تنهي وتعود إلى مطبخها مبتسمة كأن روحا ارتاحت بعد تعب، وعبد الله ما ينفك يراقبها وهي تهرول بين الغرفة والمطبخ، وبين القلم والدفتر، تتبادل معه الأفكار وتسليه طمعا في أن تخفف عنه بعض الأوجاع وتسكن تلك الآهات التي كان يكتمها مخافة على قلب أمه وزوجته من حريقها، يتمتم في نفسه :"سيعوضك الله قريبا عن كل تعبك معي يا حبيبتي...".

في صباح ربيعي اختارت هاجر ما بدا لها أنه من أجمل ثيابها لتذهب كما اعتادت لعملها الجديد وفكرة الكتب والقراءة في هذا الظرف الصعب الذي تمر به تشغلها، تناولت حقيبة وردية اللون تناسب بدلتها الزاهية واتجهت صوب المكتبة الرئيسية لمقابلة فريدة رفقة الكتب. الكتب التي طالما كانت تبدو في نظرها مجرد أشباح تسكن الزوايا والقرب منها بمثابة المغامرة المحفوفة بالمخاطر. لكن هاجر كانت تلك الشخصية القوية التي تهوى التحدي رغم ما تمر به من ظروف قاسية، دخلت إلى بهو المكتبة

وإذا بها تلمح فريدة واقفة تنتظرها أومأت بإشارة فهمتها هاجر على الفور فتقدمت نحوها وحيتها بقبلات ورددت بصوت مفعم بالفرح:

-"كيف حالك أستاذة فريدة؟".

-"بخير والحمد لله ". هكذا ردت فريدة ، ثم أشارت إلى المكتب الذي كان في الزاوية:

- "هذا مكان عملك الجديد، لن تصففي الكتب بعد الآن، صارت لديك مهمة أخرى".

نظرت إليه هاجر في فرح وذهول تمسح بعينيها زاوية مكتبها الجديد الذي منحته لها فريدة وهي تقول:

-"آهذا مكتبي أنا! آهذا مكتبي أنا! ".

أجابتها فريدة بابتسامة:

-"نعم، بكل تأكيد هذا هو مكتبك يا هاجر، لقد كان عملك متقنا وأحببت تفانيك فيه لهذا أريدك في أمور أكثر جدية".

لم تكن تتوقع هاجر هذا أبدا وقد غمرتها الفرحة التي لم تُجد التعبير عنها سوى بالبكاء ثم اتجهت نحو عملها لتباشره بكل حب وصدق.

"من أين أبدأ ؟! وكيف؟! " تمتمت هاجر وهي تجلس على كرسيها تتفحص المكان والزوايا من حولها كأنها تبحث عن شيء ما، متوترة قلقة يراودها شعور مزيج بين فرحة واستغراب. أخذت نفسا عميقا وعزمت أن تفتح كتابا كان موضوعا أمامها عارضا نفسه أن يقرأ ، تصفحت الكتاب وإذا بها رواية لكاتب صعب عليها نطق اسمه كانت رواية مترجمة بحجم كبير لكن صورة الغلاف لافتة للنظر لشخص يرقص بملامح سعيدة رغم الحزن الذي يغطيه...غريب أن يرقص رجل وهو حزين؟ كيف يجتمع ظاهر الفرح بباطن الحزن الواضح على الملامح؟... طوت الغلاف وبدأت تقرأ بعض الكلمات غير المفهومة كأنها شعر حر أو تعويذة يونانية غريبة عنها لكن سرعان ما ألفت الكلمات واندمجت معها وسافرت هي الأخرى مع قصة زوربا اليوناني .

تلك السطور الأولى من الكتاب الذي بين يدي هاجر كانت أبياتا شعرية لدانتي، تلك الأبيات الطويلة التي تفتح آفاق التفكير

في ملذات الحياة بين تلك السطور والصفحات اكتشفت هاجر أشخاصا آخرين لا يشبهونها لكنهم يفكرون في الحزن والسعادة والحب بطريقة مختلفة لا تشبه طريقتها في التفكير. قلبت الأوراق تباعا شغفها النص نسيت هاجر لساعة من الزمن من هي وما ينتظرها وجرها خيالها سابحا مع الباخرة التي يركبها زوربا وصديقه.

ابتسامة عريضة شقت ثغر هاجر وفضول لإتمام تلك الصفحات، شوق لمعرفة كيف يفسر هذا المجنون الحياة وكيف وصفها وعاشها بعبث؟ لم توقفه لحظة ألم في حياته ولم يشعر يوما بالندم .... كان يرى في كل ما يحدث حكمة ويستثمرها لصالحه رغم اختلاف الديانة والمعتقد غير أن قصة زوربا ملهمة دفعت بهاجر أن تعيد حساباتها وأن تفكر بتفاؤل وخبرة أكبر .

كيف لكتاب أن يقلب كل الموازين؟ هذا ما فكرت به هاجر وكيف لم تكن تقرأ أبدا رغم أنها متعلمة لقد أضاعت الكثير من الوقت.

غادرت هاجر المكتب ولم يغادرها الكتاب قط، عادت إلى البيت ماشية على غير عادتها تغمرها مشاعر متضاربة وأسئلة لم

ترد أبدا على بالها مسبقا ... أو تراها تتفلسف في نظرتها للحياة أم قلقة من مستقبل مجهول في خطى ثابثة لكنها غير مقصودة بل جاءت عبثا. كانت تقترب من البيت مفعمة بالحياة كما لم ترها من قبل.

دخلت هاجر إلى بيتها انتبهت لأول مرة أنها تشم رائحة مخالفة لرائحة المكان الذي جاءت منه، رائحة تعانق روحها ليست عطرا وإنما هي رائحة الشعور بالأمان والطمأنينة"، أيعقل أن يكون للأمان رائحة ؟

أجابت نفسها وهي تفكر بصوت مرتفع "نعم له رائحة كزهرة البابونج وهي تنتشر في كل زاوية، إنها تجعل الإنسان أكثر راحة وحبا لبيته الدافئ مهما كان بسيطا".أقبلت على غرفة نومها تريد الاطمئنان على عبد الله باسمة الثغر ، سلمت عليه وسألته عن حاله اليوم وبدأت كأي أنثى فرحة لا تريد منه في تلك اللحظة إلا أن يكون لها أذنا صاغية لتكون له شهرزاد تبوح بكل تفاصيل يومها في العمل.

في صباح اليوم الموالي دخلت هاجر المكتب كعادتها تستل كتاب زوربا من الدرج الذي أخفته فيه، وغرقت بين صفحاته التي

ميزت جزأها المقروء بورقة صغيرة، وراحت ترى أن الجميع من حولها "رجاءً وقعي لنا هنا"،" أهذه هي هاجر الروائية؟".

أصوات تتعالى من هنا وهناك، وهي محتارة بمن تبدأ، فجأة تلمح شخصا متجها نحوها يرتدي هنداما أنيقا، شاهد الكل نظرات الحيرة والدهشة البادية على وجه هاجر، التفتوا خلفهم وإذا بالرجل يقترب رويدا رويدا، ملامحه تشبه ملامح عبد الله، "عبد الله شفي ... زوجي شفي ..." تردد هاجر في نفسها وما كادت تنهي هذه العبارات حتى أحست هاجر بيد توضع على كتفها وتهزها، "هاجر "هاجر ".

كانت فريدة تحاول إرجاعها إلى الواقع، وإعادة حواسها لذلك المكان.

-"نعم ،نعم ...سيدتي ، آسفة شردت قليلا".

اقتادتها لمكان آخر من مبنى المكتبة، فرحة هاجر لا توصف وهي ترى الكم الهائل من الكتب بكل الأحجام والأشكال والألوان وحتى بعدة لغات.. متراصة في خزانات ضخمة في أروقة متوازية وأخرى متقاطعة. جلست هاجر على كرسي فخم أمام مكتب خشبي فوقه عدد من الكتب أو هي رواية قد نسخ منها عدد كبير،

عاودتها فكرة أن تصير كاتبة، أمامها جمع من القراء ينتظرون دورهم لتوقع لهم الروائية هاجر.

"هاجر... أين سرحت بخيالك؟".

كلمات فريدة أيقظت هاجر من هنيهة جميلة داخل حلم يقظة قصير، احمر وجه هاجر وهي تنظر في وجه السيدة كأنها كشفت حلمها الذي كان ذات يوم حلم فريدة التي حققته على أرض الواقع.

طرق متواصل على الباب، يحرك كرسيه دافعا به إلى الأمام ليرى من الطارق.

-"الجيلالي! ...والله مفاجأة سارة، تفضل".

ها هو صديقه الجيلالي يزوره في ظروف غير تلك التي كثيرا ما حلما بها حين كانا بالثكنة العسكرية، يوم قرف عبد الله من أكل مطعم الثكنة وراح يمدح أكل زوجته، واعدا أصدقاءه بقصعة كسكس من يد هاجر.

لم يكن وجه الجيلالي ذا ملامح واضحة، كان فيها شيء من القلق الذي فشل في مداراته حتى وهو يداعب أنامل سمية ويهديها كيس الحلوى. غير أن عبد الله بادره بالحديث بعدما أنهيا تناول الغذاء وجلسا على صينية الشاي:

-" قل يا الجيلالي.. ما وراءك؟ لستُ أقلق من الأقدار فأنت ترى، أنا حيّ على أية حال ".

صمت الجيلالي قليلا وهو يهرب نظره إلى قطع الحلوى التي نثرتها سمية على الزربية، ثم يرفعه ببطء قائلا:

-"والله يا صديقي لا أدري ما أقول. بالنسبة للعملية فلا داعي للسفر إلى تونس يمكنك إجراؤها هنا، علمت بقدوم أحد الأطباء الماهرين إلى المستشفى العسكري ويقولون إن عملياته كلها ناجحة، لكن في حالتك فإن نسبة النجاح هي نفسها نسبة الفشل".

من شدة حماس وفرح عبد الله لم يعر اهتماما للخبر الثاني، واحتفظت ذاكرته فقط بإمكانية إجراء العملية في الجزائر ومدى مهارة الطبيب الجراح.

-"الحمد لله، الحمد لله، كنت أحس أن الفرج قريب...متى سنذهب إلى المستشفى ؟متى أخبرني؟".

-"تريث قليلا، ستقوم بإجراء بعض التحاليل أولا ثم يقرر الأطباء موعد العملية بعد اطلاعهم عليها".

فرحة عبد الله باقتراب إجراء العملية ارتسمت على بريق عينيه ولم تفهم سمية شيئا حين ابتسم لها والدها، بادلته الابتسام وعادت تعبث بقطع الحلوى.

-"أخيرا سيزول الهم، أخيرا سينزاح الضباب، أخيرا ستشرق الشمس الحمد لله .الحمد لله ". قال رافعا يديه للسماء.

سمعت الأم كلام فلذة كبدها، بكت وسالت دموع الرجاء على تجاعيد السنين، لامست وجها أنهكه التفكير وأتعبته الهموم والآلام والأوجاع، فأوجاع الضنى تذبل الفؤاد.

-" الحمد لله يا ولدي، الله كريم يا حبيبي. يا رب لا تأخذ روحي إلا وأنا مرتاحة البال ، وأرى ابني يقف على قدميه مرة أخرى بإذنك يا رحمن يا رحيم".

غادر الجيلالي بعد أن تواعدا على اللقاء بالمستشفى، وظلت الأم وابنها يتبادلان أحلاما ومشاعر لا حدود لعمقها رافعة كفيها بالدعاء: "الله يحفظكم وييسر أموركم ويعطيكم ويغنيكم ولا يفرق شملكم" قبّل رأسها وراح كل منهما ينهل من حنان الثاني زادا لما تبقى من العمر.

عادت هاجر إلى البيت قبيل غروب الشمس بقليل منهكة متعبة، فتحت الباب فوجدت عبد الله مازال جالسا على كرسيه لمحت بريق دمعة مكابرة استقرت بمقلة عينه، يحتضن صغيرته سمية بين ذراعيه، حين رآها أخفاها بكُم قميصه مبستما:

-"أهلا.... كيف كان يومك؟".

قالت وهي تضع حقيبة يدها جانبا وتمد يديها لتحتضن صغيرتها:

-"الحمد لله كان يوما متعبا لكنه مميز، فقد طلبت مني السيدة فريدة أن أخصص وقتا لأجلس وأكتب وأعرض عليها كتاباتي، ووعدتني أنها ستوجهني وتساعدني".

-"الحمد لله، هذا خبر مفرح ." صمت قليلا ثم أضاف:

-"وعندي لك خبر مفرح أيضا، لقد زارنا الجيلالي وأخبرني بأنني سأتمكن من إجراء العملية هنا بالجزائر دون الحاجة إلى السفر خارج الوطن، سأتمكن أخيرا من مغادرة هذا الكرسي".

ردت هاجر تكاد تقفز فرحا:

-"حقا !.. هل ستجري العملية؟".

-"نعم صحيح، سأجري العملية هنا في الجزائر، أقصد بعد التحاليل وموافقة الأطباء..".

عبد الله كان يتكلم بسرعة، يتكلم ويلتقط أنفاسه في آن واحد، يعيد الكلمة والجملة عدة مرات كأنه غير متأكد من كلامه، أو كأنه يريد أن يحفظ هذه الكلمات والجمل، يريد أن يطيل الحديث مع هاجر يريد أن يصدق أنه سيمشي مرة أخرى. قالت هاجر:

-"الحمد لله ...الحمد لله...خيرا إن شاء الله".

آهات بداخل هاجر لم تبح بها لكنما ترجمتها عيناها، ودموع قلق وخوف كتمتها فاستحالت آلاما، وسرعان ما عادت لرشدها واستغفرت خالقها فعادت آمالا ... صوت الطائر الذي غرد ذات ربيع يعود اليوم صباحا يغرد على غصن شجرة البرتقال، تتسلى به سمية وتتساءل:"هل كل الآباء يجلسون على كراسي متحركة؟" قطع حبل تساؤلاها الطفولية البريئة صوت الجدة المبحوح، المنبثق من بين شفتين نقشت عليهما سيرورة السنون مختصرة في وشم أخضر يصيح بماض سحيق يجمع ذكريات لم تمحها لا الأيام ولا المحن ولا حتى أفراح من الماضي والحاضر ... نادتها فأقبلت سمية مبتسمة والطائر غرد وطار.

جاءت سمية بكوب ماء تشده بيديها وتمشي في توازن خشية أن ينفلت من بين يديها الصغيرتين نحو جدتها التي رمت قرص دواء في فمها وألحقت وراءه جرعة ماء.

عبد الله يفكر ويتجول بين الإذاعات وزر المذياع حبيس بين سبابته وإبهامه، لا يحبذ أن يسمع كلاما فارغا كل ما يبحث عنه أخبار الوطن وأخبار الجيش الوطني وأخبار المناخ. يتيه وينسى ما كان يبحث عنه فيصدر المذياع أصواتا ذكرته براديو العسكر

فينصت مبتسما وهو يهز رأسه إلى الأمام وَهِنًا، يسأل نفسه ويبعث زفرة حيرة: هل ستنجح العملية ؟.

لم ينبس بكلمة لكنه تساءل في داخله خوفا على أمه وعلى حالتها.

كان الصباح مشمسا والطائر يغرد لكن على غير عادته هو اليوم قابع على حجر فوق السطح، لم يزر شجرة البرتقال اليوم ربما وجد ما يسليه فوق الحجر. الجماد أيضا قد تُبعث منه الحياة، ألا تتفجر الينابيع من بين الصخور؟.

عاد الجيلالي إلى عبد الله ليصحبه معه للمستشفى كما اتفقا، وطفقت هاجر تحضر حقيبة عبد الله ومستلزماته وهي تتمتم بدعوات غير مسموعة هي للهمس أقرب من الكلام. انتهت من تحضير الحقيبة وأعدت للاثنين كأس شاي بالنعناع أنهياه بسرعة، وقف الجيلالي وهمّ بالخروج ودفعت هاجر الكرسي المتحرك فانهمرت العبرات، وأقبلت الأم تقبل جبين ابنها تدعو له، وعانقت البنت أباها مبتسمة دون أن تفهم شيئا أو تحاول. تذكر حينها آخر تساؤل له عندما كان عسكريا أيام الخدمة الوطنية وهو يودع أمه وزوجته وابنته: هل سأعود حقا؟.

غادر عبد الله رفقة الجيلالي تخالط فؤاده مشاعر متداخلة بين أمل وخوف ورجاء، لكنه مقتنع كل القناعة أن بعد العسر يسرا، وأن الأقدار بيد الله كيف لا وقد نجا من موت محتم فيما سبق. وسرعان ما يتبدد هذا الأمل فيشعر باقتراب النهاية، يتسارع نبضه ويغرق في دوامة أحزان ينقذه الاستغفار منها. فترتد إليه روحه، ويظل يتأرجح بين الأمل واليأس، يلتفت إلى صديقه الجيلالي الرجل الهادئ فيجده مبتسما يدفع به الكرسي دفعة تبعث الطاقة والقدرة في أوصال هذا المقعد فينادي "يالله" صرخة الطمع في غد أفضل. حان موعد اقتراب الحافلة، حافلة كان يقفز إليها مسرعا هاربا من دموع والدته وزوجته ..ها هو اليوم يُحمَل إليها مسرعا نحو فك قيود كرسيه المتحرك، لطالما كان يغمض عينه ليتراءى له خيال أمه وزوجته وابنته، لكنه هذه المرة يغمضهما ليتخيل غرفة العمليات و أصوات الممرضين وتنهد الطبيب يا ترى أهو طبيب ماهر ؟ هل سبق وأن أخفق!؟ هل سيتمكن من إنقاذي وإعادة الحياة لقديمي؟، أسئلة كثيرة منهكة تجبره على فتح جفنيه. وإلى أن يصل إلى المحطة المقصودة سيكتفي بسماع ضجيج محرك الحافلة.

مرت الساعات متثاقلة ثكلى بالهموم ثم توقفت الحافلة، يلتفت إلى صديقه الجيلالي يوقظه، فيستفيق مذعورا "لقد وصلنا بسرعة"، يبستم عبد الله ويتمتم "بسرعة؟ قل إنها مسافة أيام وإنها أطول مسافة قطعتها". والحقيقة أن المسافات غالبا لا تقاس إلا بنفسياتنا المتقلبة ومزاجنا وحسب ذلك تزيد حتى وإن كانت قصيرة وتقصر حتى وإن طالت في الواقع.

صوت يتردد بأذن عبد الله أن لن تنجح العملية، وأنه يعيش آخر أيامه فراح ينظر إلى الأماكن كأنها آخر نظرة.

هز عبد الله رأسه مبعدا عنه تلك الوساوس التي اجتاحته لحظة وهن وضيق، هو يدري أن الطبيب قد أكد له لاحقا نجاح العملية بعدما قام بجميع الفحوصات فَلِمَ التوجس والقلق؟، صديقه هو الآخر شجعه على العملية بعدما أجرى اتصالات بأطباء في الخارج. تنهد عميقا محاولا نسيان الزمن والمكان وراح يعبث بالكتب التي وضعت على طاولة الانتظار بذلك المستشفى؛ مجلات بتواريخ قديمة، كتب علمية، مطويات طبية،...قبل أن يقع بصره على كتاب تآكلت حواشي أوراقه وتمزق غلافه، حمله بين يديه مشدودا بجمله المنقوشة كرسوم قديمة تغريه رائحة الورق العتيقة التي ذكرته بجنان جده، برائحة الطين حين تخالطها زخات مطر، وزيوان نخل ظل يتشرب ما تبقى من قطرات تجمعت على

الأرض، وشيء من رائحة أمه أشبه ببخور كانت تعطر به والده كل جمعة.

فتح عبد الله الكتاب....وسافر مع كلماته إلى عالم الجن والعفاريت، عالم لا يشبه عالم ذلك المبنى الذي يكتسحه البياض ككفن، وجاءت كلمات الكتاب في سحر :

"وأنت تقرأ هذا الكتاب؛ اترك كل ما خلفك للعالم الذي تعرفه... الآن، فأنت في حضرة ملوك الجان".

عبارات مرعبة، يتخللها التشويق، يبعث ذلك الفضول في قرارة نفسه... يواصل القراءة!!

"كنت أعلم أنك ستأتي، أحدثك أنت... يا من تقلب أوراقي. قربك مني الآن ليس صدفة بل قدرا، لا أعرف إن كان جميلا أم لا لكنك أدركته ...ضاقت بك الدنيا بكل ما رحبت والآن تشعر بالعجز والضيق وعسر التفكر والتدبير. لك أن ترتاح من القلق، اقرأ سطوري المتوازية وسافر في بحر كلماتي عساك ترتطم بشاطئ يغنيك عن واقعك المرير يا هذا ....."

تخدرت شفاه عبد الله وتصلبت يداه، أيعقل أن يحدثني الكتاب؟ أيعقل أنه يعرف من أنا ...؟

حاول وهو يفكر بالإفلات منه واضعا إياه على الطاولة إلا أن يده لم تطاوعه ولا عينه غادرت حروفه .... أكمل القراءة وهو يتنفس بشكل متقطع "لست وحدك في الدنيا من يشعر باليأس، أنا كذلك حبيس هذا الكتاب منذ سنين، أصابتني لعنة بعدما كنت حلمَ وشغفَ أحدهم، تحولت لتعويذة شيطانية. اقرأ عيون من يقرؤني وأتحرى أمره وأفصح عما عجز عن قوله. أنا الآن أقرؤك، أنت الشاعر بالنقص قليل الحيلة الذي غرته الدنيا رغم قساوتها إلا أن لعنة ما قد أقعدتك".

"كان ذلك حادثا" رد في سره عبد الله دون أن يجد شجاعة الجهر بها. "أعلم أنه كان حادثا تغيرت بعده حياتك، ولم تعد ذلك الرجل المكافح رب الأسرة المسؤول، بل وأصبحت عالة على زوجتك"، قطب عبد الله حاجبيه واغرورقت عيناه رغما عنه، رفع رأسه للسقف محاولا كظم غيظه، ما إن أعاد نظره للكتاب حتى لمح الحروف تتغير من مواضعها وترتحل بين السطور في حركة عشوائية وبلا انتظام، كان مشهدا مروعا أطبق على صدره واستشعر أن المكان فارغ والأصوات بعيدة بعيدة لدرجة خالها مدفونة في قاع الأرضية التي يجلس عليها، تنتابه الحمى مرة وترتجف أطرافه مرة أخرى...

"أيعقل أن الحمى أثارت هلاوسي..لا... لا..غير ممكن.. مستحيل". أغمض عبد الله عينيه وفتحهما أكثر من مرة، ولم يستطع أن يبعدهما عن صفحات الكتاب، إلى أن لفت انتباهه سهم في إحدى الفقرات يشير إلى كلمات متراصة تقول: "ابحث عن طريقك في العتمة، ستراه بقلبك حتما. لا تبحث عمن يضيء دربك وكن أنت نور عتمتك"، واصل عبد الله القراءة بين جهر وسر ونسي مَن حوله كليا، حتى ليبدو لمن يلمحه من بعيد أنه يهذي ولا

وعي له بما يفعله. شغله الكتاب عن غيره وحتى عن نفسه كأنه ارتد فجأة مسحورا.

اقترب الجيلالي من رفيقه مستغربا جحوظ عينيه والتصاقهما بالكتاب، شد على كتفه مخاطبا:

-" ما بالك يا صديقي؟ أنت بخير ؟.

رد عبد الله :

-"أجل أنا كذلك، خذ هذا ..أبعده عني".

ما إن هم الجيلالي بأخذه حتى جذبه عبد الله وافتكه منه قائلا :

-"أتركه.. قلت اتركه".

استغرب الجيلالي وهو يرخي يديه ليسحب منه عبد الله الكتاب:

-"أولم تطلب مني أخذه؟".

لم يرد عبد الله، أعاد الكتاب على الطاولة مرتجف الأوصال. ولم يخطر ببال الجيلالي شيء عدا أن صديقه ليس بخير و أن حالته النفسية سيئة. قال:

-"أما زلت قلقا بشأن العملية؟ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لا تقلق سيكون كل شيء على ما يرام".

التفت عبد الله صوب الجيلالي منشغل البال قلقا محتارا مما قرأ، أهو حقيقة أم محض خيال؟. أعاد بصره للطاولة كأنما يطمئن على الكتاب إذا مازال موجودا، وما إن أدار وجهه حتى لمح صورة على الغلاف لم تكن موجودة من قبل، صورة دوّامة تسحب بداخلها شخصا لم يعد يظهر منه سوى ذراع يستغيث بالعدم لونها أزرق مائل للرمادي، وكأن الدوامة اختلطت بحبر أو بشيء آخر عكر صفو لونها. وكلما حدق بالصورة كلما تكشفت له تفاصيل أخرى، الغريب أنه كان يعرفها جيدا والأغرب أنها تظهر تارة وتختفي أخرى.

-"الجيلالي، أنا لست بخير، أشعر بضيق رجاء هل لي كوب ماء من فضلك" ، رد الجيلالي:

-"طبعا، سأحضره لك، ارتح أنت هنا دقائق وأعود".

نهض الجيلالي وهو ينظر بشفقة واستغراب لصديقه الذي لم يكف عن الهمهمة بين استغفار وتعوذ من الجن وأهله.

استدار الرفيق ليجلب ما طلبه عبد الله فأقبلت ذراع الأخير تمتد إلى الطاولة جالبة اللعنة من جديد إليها. أخذ الكتاب وأخفاه في سترته محتضنا إياه بقلق.

حان وقت الدخول لقاعة الكشف دفع الجيلالي الكرسي المتحرك متجها نحو باب القاعة وقلبه يخفق من شدة الخوف. رائحة المكان وألوان الجدران تشعر غالبية المرضى كما الزوار بالخوف، للمستشفيات رهبة لا يختلف عليها أحد. أقبل الطبيب بابتسامة باردة يفتح الباب مرحبا بمريضه :

-"كيف حالك عبد الله؟ تفضل.. هل أنت جاهز للمعاينة".

رد الجيلالي:

-أكيد... فهذا موعده المنشود، أليس كذلك يا صاح؟".

لم يتلفظ صديقه التائه بكلمة. تبادل الجيلالي والطبيب النظرات ذاتها في استغراب وكرر الطبيب السؤال مضيفا هذه المرة:

-" هل أنت بخير ؟!".

هز عبد الله رأسه من الأعلى نحو الأسفل قاصدا أن نعم، وباله مشغول بما في جعبته متفقدا الكتاب الملعون داخل سترته، جلب الطبيب السماعة وقرب منه طاولة علاج مربعة الشكل تحوي العديد من الأدوات التي تساعده على فحص المريض، استأذن الطبيب المريض في فتح السترة والكشف عن صدره، لكنه لم يستجب، فاضطر الجيلالي للقيام بذلك ظنا منه أن صديقه مرعوب من اقتراب موعد العملية، فتح السترة بسلاسة وعبد الله يشد على أطرافها كأنه يخفي شيئا ما، لكن سرعان ما اكتشف أن ما كان يخفيه غير موجود رغم أنه من ثواني فقط كان تحسس صدره واطمأن لوجوده.

قال عبد الله "عليك اللعنة، أين اختفيت؟"، واستغرب أن لا أحد منهما يسمعه. استسلم أخيرا لحركات الجيلالي وهو في عالم آخر غير عالمهما، كشف الطبيب على حالته و طلب من رفيقه أن يساعده في الكشف عن ساقيه ليكمل المعاينة وكان ذلك.

بعد استكمال المعاينة عاد الطبيب ليجلس على كرسي مكتبه وينشغل بتدوين ملاحظات في ملف المريض. كان الجيلالي

يراقب ذلك بتركيز ليفك شفرات الطبيب المتداخلة ويحاول جاهدا تفسير تعابير وجهه لعله يشحذ بريق أمل. وقبل أن يسأل الجيلالي كان الطبيب قد قطع حبل السؤال قائلا:

-"عفوا... على المريض أن يكشف عند مختص أمراض القلب والشرايين، زيادة على ذلك عليه إجراء تحاليل أخرى لنطمئن أكثر ونستطيع بعد ذلك أن نقرر".

نطق عبد الله وكأنه يهذي خارج الزمن والمكان: "أنا النور وسط العتمة ...أنا النور"، تبادل الجيلالي والطبيب نظرات الاستغراب وحاول هذا الأخير إنقاذ الموقف مسلما الجيلالي الملف الطبي، حاثا إياه أن يسرع باستشارة طبيب القلب والشرايين وهذا ليضمن موعدا سريعا لإجراء العملية.

خرج الاثنان من المستشفى وكلاهما يحدق بالطريق أحدهما قلق على رفيقه والآخر قلق على صحة عقله متسائلا "أين اختفى الكتاب؟ كان هنا... ملتصقا بسترتي"، ما إن وضع يده على صدره حتى أحس وجوده، " ماذا ؟ إنه هنا ... غريب كيف اختفى؟ كيف عاد؟"، بينما هو يتأكد من وجوده سأله الجيلالي عن خطبه وتوقفا عن السير.

-" عبد الله! ما بك اليوم؟ أنت غريب الأطوار، تهذي وتتحرك كأنك تبحث عن شيء؟ هل أنت مصاب بالحمى؟".

رد عبد الله:

-" بل أنا مـ...عتـ...ـوه". قالها بنَفَسٍ متقطع، وحروف بلع جزءا منها داخل فمه كأنه يفقد صوته وكلامه شيئا فشيئا. قال الجيلالي:

-"سلامتك صديقي، سأعيدك إلى الفندق لترتاح لا تشغل بالك قد تكون بوادر حمى أو أنك أصبت بإرهاق من طول السفر. غدا إن شاء الله نبكر لمدينتك".

صمت عبد الله وسار مع الجيلالي دون أن يقول شيئا، كان مرهقا فنام فور دخولهما غرفة الفندق دون حتى أن يتناول العشاء. في حين جلس صديقه قرب نافذة الغرفة المطلة على شارع يحتضن ظلالا غسلتها زخات مطر، ولا أثر في مثل هذه الساعة لبشر، فخفافيش الليل كانت تمتص دماء من يطلع بعد غروب الشمس بسبب أو بدونه. راح يطالع جريدة لتاريخ مضى عليه أكثر من أسبوع، عناوين كبرى لاغتيالات بعضها مرفقا بصور الضحايا والبعض الآخر بحروف نابت عن أسماء أصحابها وعناوين كبرى

لمشاريع وهمية ظلت تتصدر الصحف وفي الأسفل حرفان لاسم صاحب المقال الذي ما كان له أن يجرأ على التصريح باسمه وإلا صار واحدا من تلك الأسماء المضمخة يوميا باللون الأحمر.

عاد عبد الله إلى البيت بعد رحلة قضاها بين الهلوسة واليقظة، عاد محمّلا بهمٍّ جديد شغله عن صحته وتلهفه للوقوف مرة أخرى على قدميه. كان أكثر ما تمناه حينها أن يكون ما مر به نهار أمس مجرد كابوس سيصحو منه.

بعدما استراح عبد الله من تعب السفر وودعهم الجيلالي، جلس عبد الله مع أمه وزوجته يقص عليهما ما حدث بسفرته وما كان بقاعة المعاينة، محتفظا بتلك التفاصيل -التي أزعجته وأرّقته- لنفسه، لم يرتح بال الأم التي ظلت تسأله مستفسرة لعله قد يبوح بشيء أحست أنه يتعبه، حدس الأم لا يخطئ، كانت تصغي إليه وقلبها يشي لها بخطب ما. لم يترك لها عبد الله فرصة كشفه واعتذر لهما مدعيا أنه يشعر بالتعب ويرغب في النوم، ثم أضاف على غير عادته أن يبقى لوحده و لا يزعجه أحد، فأومأت هاجر بالموافقة بينما تأكد حدس أمه وراحت تدعو له بالسكينة والهدوء.

اختلى بنفسه في الغرفة، تأكد من إغلاق الباب، التفت يمينا وشمالا بقلق يتأكد من عدم وجود أحد سحب الكتاب من تحت سترته مرتجفا، قلَّبَه يبحث عن العبارة التي انتهى عندها ليواصل ما بدأه، غير أن لعنة أخرى أصابت السطور وكتبت كأنما كتب النص عكسيا من اليسار إلى اليمين:

"لا أحد يشعر بي غيرك أنت الوحيد المعني بي فلا تبحث عني في عيون من حولك، أتعتقد أنني مخيف؟..أُشعرك بالذعر أليس كذلك؟ أما أنا فأعتقد أن ذات الإنسان ونفسه التي تحدثه هي أكثر شيء مخيف على سطح هذا الكوكب الذي تعيشون عليه وتخشون مغادرته".

تحركت الحروف من مواضعها وسارعت في كتابة أسطر أخرى ... تساءل عبد الله عما يجري ولماذا يرى هذا العجب، ردت الأسطر:

" أنا أنت ... داخلك المريض هو من يخيل إليك أنك تشبه من يدّعون العقل، أنت لست تهذي بل اليوم عرفتَ حقيقتك، حديثك معي أهم وأعمق من أحاديث رفاقك البشر ، أتدري... أنا من جعلتك حبيس هذا المقعد، كان الحادث سببا لكنني المسؤول

الوحيد عن إبقائك على نفس الوضع. جلوسك هذا نعمة في عالم الجن، حان الوقت لتكتشف خفاياه وتدرك أنك جزء منه".

حاول رمي الكتاب من يده دون جدوى، صرخ قائلا:

-"أغرب عني أيها الكتاب التافه، دعني وشأني لست معتوها... أنا الحقيقة وأنت الوهم، أنا الحقيقة وأنت السراب..".

دخلت الأم مسرعة لغرفة ابنها وتبعتها هاجر مهرولة من المطبخ، وجدتاه يلوّح بيده ويحاول نفضها كأنما من شيء عالق بها ولكنهما لا تريان شيئا.

-" ما بك عزيزي؟ ما خطبك يا كبدي؟ بسم الله الرحمن الرحيم ... بسم الله الرحمن الرحيم".

ضمت رأسه لصدرها وهي تقرأ ما تيسر من الذكر، بينما مذهولة وقفت هاجر قبل أن تقوم لمساعدة أمه على تعديل قدميه اللتين ما عادت لهما وظيفة منذ ذلك الحادث المشؤوم.

حاولت اللأم تهدئة قرة عينها ومساعدته في التمدد على السرير، جلست بجواره تمسح على رأسه مرارا، تقرأ القرآن الكريم

تارة وتصلي على النبي تارة أخرى. ممعنة النظر إلى وجهه الذي يتصبب عرقا في شحوب وحيرة.

بعد نومه خرجت الأم تغلق بهدوء باب غرفته، ذارفة دموع القهر في صمت على حال ابنها، مشفقة متحسرة. تضرب كفا بكف كأنها، متوترة تقلب نظرها بأرجاء البيت:"ماذا عساي أن أفعل، كنا في هم الرجلين وأصبحنا في هم المس والجنون؟" لابد أن أعجل في استدعاء راقٍ إلى البيت، لن أترك ابني للتيه والضياع".ثم حملت سبحتها تواصل ما بدأته من ذكر.

بينما كان عبد الله بالغرفة المجاورة غارقا في نومه، يتراءى له أنه يغرق في جوف كرسيه المتحرك كأنه بئر عميق أو كأن الكرسي رمال متحركة تلتهمه تدريجيا، وهو يقاوم بكل ما أوتي من قوة، محركا أطراف يديه منفعلا إلى أن سقط من السرير مرتطما بالأرضية.. استفاق مفزوعا يتحسس الألم كاتما الآهات لترتد بداخله، سرعان ما تجمدت حركته بعدما تذكر هلوساته كأنما مر عليه هذا المشهد من قبل... تذكر ذلك الذراع المستنجد بالفراغ والجسد الذي التهمته الدوامة ...أجل تلك الصورة كانت على غلاف الكتاب الملعون... حاول العودة للسرير دون جدوى.

محاولته المتكرر وعجزه في القيام بأبسط أمر كدر خاطره المشوش بتلك الأصوات والصور المتداخلة بين سطور الكتاب وصورة غلافه "النور في داخلي وأنا من أميز دربي" هكذا قال الكتاب ، ردد الجملة أكثر من مرة وبسرعة حتى تداخلت الحروف في مخارجها وباتت الجملة كأنها بغير لغة واضحة، كأنها تعويذة أو طلاسم، ما هي إلا ثواني حتى وجد عبد الله جسده مستلقيا على السرير وكأنه لم يغادره.

ينظر للسقف برعب متشنج الأطراف قابضا على أسنانه في دهشة، يُحدّث نفسه:"فعلتها بدون مساعدة؟ لم أستعن بأحد، أنا أستطيع تحريكهما... هل أنا في حقيقة أم أنا في وهم؟ ... لا.. لا دخل للكتاب بما جرى، مستحيل" وساحت دموع عبد الله على خده مشفقا على نفسه من الهذيان.

في الغرفة المجاورة كانت الأم تبحث في كيس مكتنازاتها عن علبة خضراء اللون، في الواقع لم تكن خضراء اللون وإنما بُنيّة ملفوفة بقماش أخضر، جاءت بها منذ سنوات عدة من ضريح ولي صالح بها أنواع من الأعشاب التي قيل لها أنها نافعة للمس والسحر، ظلت تحتفظ بها ليوم كهذا. بعدما عثرت عليها أخذت

بين إصبعيها السبابة والإبهام مقدارا من تلك الأعشاب الجافة ورمت بها على صفيح ساخن وسط الموقد لتتمكن من تبخير البيت وطرد لعنة الشيطان التي أصابت ابنها كما اعتقدت.

بعدما بخرت الأم البيت متوهمة أنها طردت بذلك تلك الأرواح الشريرة التي أصابت ابنها، همت بدخول غرفته للاطمئنان عليه ولتدس شيئا من ذلك القماش الأخضر تحت وسادته، وجدته لا يزال يغط في نوم عميق وقفت في مكانها دون أن تفعل شيئا.

عادت هاجر إلى البيت بعد يوم متعِب وفور دخولها استغربت رائحة البخور والفوضى التي في المطبخ أسرعت لغرفتها فوجدت حماتها تراقب نوم ابنها وهي تبكي سألتها ماذا حدث فأمسكت حماتها بيد زوجة ابنها وانسلتا من الغرفة بهدوء:

-"عبد الله ليس بحالة جيدة، قال لي الجيلالي أن تصرفاته غريبة؛ يحدث نفسه، ويحرك أطرافه وكأنه يتواصل مع أناس آخرين، ولم أصدق ما قاله إلى أن سمعته حين اختلى بنفسه يتحدث ويعاتب شخصا كأنما أصابه مس" وشوشت الأم.

ردت هاجر:

-"عبد الله لازال يعيش تحت وطأة الصدمة، هو لا يستطيع أن يستوعب عدم قدرته على المشي، يقتله شعوره بالعجز واضطراري أنا للعمل بدلا عنه.. ". ثم أضافت بشي من الألم:

-" اتصل بي الجيلالي وأخبرني أنه سيأتي غدا صباحا لاصطحابه إلى المستشفى، فقد تم تحديد موعد إجراء العملية".

أبكر عبد الله وقد جهزت له هاجر حقيبة السفر وما يحتاجه أثناء وبعد إجراء العملية، كان الجيلالي قد طمأنها أنه سيهتم به هو وعائلته مادام بمستشفى عين النعجة، وأنه لا داعي لأن تسافر هاجر بل لابد من البقاء لأجل أم عبد الله ولأجل ابنتها.

لم يتحدث عبد الله هذه المرة أثناء السفر بل ظل صامتا طول الطريق، يراقب النافذة حينا ويتابع الطريق حينا آخر ضامّا يديه كطفل يتوجس من عقاب وشيك. ها هي ملامحه تتغير قبيل دخوله المستشفى، وهواجس ذلك الكتاب تعاوده من جديد. عاد ليجلس أمام نفس الطاولة لكن بالكرسي المقابل هذه المرة.

كان الكتاب مندسا وسط المجلات كما رآه المرة السابقة وقد توهم أنه حمله معه إلى المنزل، على هامش إحدى صفحات الكتاب لمح عبد الله شيئا غريبا لم يفهم كنهه، حاول فك ذلك الطلسم

المكتوب بلون أسود عبارة عن رموز ودوائر وعلامات لم يرها من قبل ولم يتصادف بها حتى في ذلك الغار الذي دخله هو وأصحابه حين قاموا بجولة إلى الجبل المطل على المدينة يومها وجدوا عظاما بشرية وجمجمة ملفوفة في قطعة قماش مهترئة ووجدوا بجانبها صندوقا خشبيا فارغا ماعدا بعض الأدوات التي يعتقد أنها كانت تستعمل للتجميل مما رجح فكرة أن الجمجمة هي لامرأة عاشت وحيدة في ذاك الغار، لكن ذلك لم يرعبه كما يرعبه تلون هذا الكتاب الذي يغير صفته كما يغير محتواه.

ارتجّ كأس كان حمله عبد الله ليبلل جفاف حلقه، انفلت من بين يديه وانكسر محدثا صوتا جلب أنظار الجميع صوبه بينما ظل بصره شاخصا ينظر لوسط تلك العين المصورة على صفحة صفراء داخل الكتاب ..نسوة تلتحفن السواد تمشين في زقاق ضيق يتبعهن قط أسود ، بيد آخرهن فأسا، اِلتفتَتْ لعبد الله، لم ير وجهها كل ما سمعه هو قولها:

-" أكسرتَ الكأس التي بيننا يا حبيب جدك؟".

أفاق عبد الله على صوت يناديه :

-"عبد الله ، عبد الله".

استدار عبد الله نحو مصدر الصوت ليتأكد من المنادي ولكنه لم يجد أحدا من حوله، لا المكان هو المكان الذي كان فيه، ولا المرضى الذين كانوا ينتظرون مثله في طابور صاروا موجودين، وحده والفراغ الرهيب... صحراء قاحلة لا بداية لها ولا نهاية... عاد يقلب الكتاب الأصفر بيدين مرتجفتين بحثا عن مخرج ما ولكنه كلما وضع يده على ورقة تتلاشى بين أصابعه. يحاول عبثا مرارا وتكرارا دون جدوى ، يصرخ مستنجدا:

"_هل من أحد هنا ؟ أيها الطبيب.... أيتها الممرضة....أيها العالم....".

فلا يجيب غير الصدى ..يقف برهة مستغربا تكبله حبال الحيرة وإذا به يسمع صوتا من خلفه يناديه:

- " عبد الله.. عبد الله".

استدار حيث مصدر الصوت، أين كانت تقف تلك المرأة التي تلتحف السواد، والفأس لا يزال بيدها التي أرختها قليلا، كانت كعرافة تطلع من بين الرمل، قالت وهي ترى شحوب عبد الله وذعره:

"_لا تخف ..أنت معي في أمان". ثم أردفت:

"_أنا خادمة جدك إبراهيم، أتيت كي أبلغك وصيته التي لم يحفظها عنه أولاده".

لم ينطق عبد الله ببنت شفة، كانت الدهشة تعقد حاجبيه وتشل حركاته، وحده عرق حمى ظل يتصبب بحثا عن جواب لما هو فيه.

مدت يدها وراحت تطلب منه مرافقتها كأنما لتثبت له صحة ما تقول:

-"متأكدة أنك مثل والدك ،لا تعرف الكثير عن جدك سوى أنه قتل على يد الفرنسيين لا على يد صديق غدر به قبيل الاستقلال بسنتين....صديقه الذي صعد معه إلى الجبل وقاتلا جنبا إلى جنب حتى آخر لحظة كما زعم".

لم يستطع عبد الله أن يعقب، كان لحضورها شيء من الجنون ومن الذاكرة التي تجلد الدقائق والساعات كابسة زر توقف الزمن، ودون أن يناقش أو يسأل سار خلفها يقتفي أثرها بحثا عن التذكار...

تبعها وهو في حيرة من أمره هل يكمل طريقه أم يتوقف، لأن الخوف كان تسلل لمفاصله فأعجزه عن الحركة بشكل طبيعي، متسائلا إن كان كلامها صحيحا أم مجرد كذبة تخفي وراءها أمرا جللا. غير أن الفضول الذي كان يسيطر عليه حول مقتل جده دفعه إلى إتمام الطريق معها واكتشاف الحقيقة. ظل عبد الله يسير خلفها إلى أن اقتربا من قرية صغيرة توقفا قرب أحد منازلها سألها باستغراب:

- "إلى أين نحن ذاهبان ؟ أليست هذه قرية ....

قاطعته قائلة :

-"نعم، إنها القرية التي كان يسكن فيها جدك الحاج إبراهيم". وتابعا سيرهما حتى وصلا إلى بيت تهشمت جدرانه وتكسر خشب سقفه حتى يخاله من يراه أنه سيسقط على رأسه. التفتت المرأة إلى عبد الله:

-" ألم يكن هذا بيت جدك؟ مؤكد لازلت تحتفظ بذكرياتك فيه، فقد كنت ابن السابعة حينها".

لم يجب، سار معها بصمت إلى أن ولجا إحدى الغرف، شعور بالحنين إلى الماضي تسلل إلى روحه وغمر حواسه. كانت المرأة قد تقدمت خطوات نحو خزانة خشبية عتيقة علاها غبار كثيف، أخرجت من داخلها صندوقا مستطيلا قدمته لعبد الله. وحين رأته لم يتحرك قامت بفتحه تعرض محتواه عليه وهو لا يزال صامتا ينظر إلى الصندوق، يمتحن ذاكرته إن كانت تحتفظ بصورة تلك الرقوم التي زينته وبذلك الطلاء الذي بهت لونه.

كانت أوراق ذلك الدفتر قد تغير لونها وكتابته لم تعد واضحة، بل بعضها فقد حروفه فلم تعد تفهم إلا بصعوبة. باشر عبد الله بالقراءة ولم يكن يفهم ما كان يقرأ لأن جده كان يكتب بلغة المخطوطات القديمة، لغة ملغزة وعميقة المعنى.

نطقت المرأة:

-"أعرف أنك لم تفهم ما هو مكتوب، ولا فهمته أنا. لذا جئت بك إلى هذا المكان لتساعدني على فك شفراته. سنتعاون معا، بالنهاية هو جدك ، و يهمك أمره".

قال عبد الله:

-"لكن كيف أساعدك وأنا لم أفهم المكتوب هنا، إنها ليست حتى حروفا عادية كالتي درسناها بالمدرسة، بعضها رموز وأرقام أيضا؟".

-"أدرك ذلك، لكن أحتاج فقط الأجوبة عنبعض أسئلتي، هل تعرف السي طاهر الملقب بحجاج الموت؟".

-"نعم أعرفه... لماذا؟ ".سأل باستغراب.

أجابت بنبرة حادة كأنها ذكرت شيطانا:

-"إنه... زوجي ، أقصد...كان".

اندهش عبد الله من ردها وهو يستحضر السي الطاهر، ذلك الرجل الذي يخاف منه الجميع لأنه قتل أحد أكبر قادة

فرنسا أيام الاستعمار الفرنسي بل ونكل بجثته في القرية قبل أن يفر إلى تونس ملاحقا من طرف جنود الاحتلال. إنه اليوم يكنى بالحجاج لقوته. وقبل أن يسأل مشت المرأة الملثمة خطوات مبتعدة عنه، ثم استدارت تخاطبه:

-"سأعطيك اسمه برموز كتلك الموجودة أمامك وأبحث عنه في الدفتر الذي بين يديك. إن هذه الرموز لا يتمكن من فكها إلا من كان من سلالة نقية كسلالة جدك، وهنا سنكتشف الحقيقة كاملة عن مقتله".

وجد عبد الله ما هو مطلوب منه وهو لا يستطيع التوقف عن التفكير فيما يحدث له اللحظة إن كان بالحقيقة أو الحلم، وعقله مكتظ بالأسئلة التي لا إجابة لها. عاد ليوثق حبل الأسئلة مستفسرا:

-"لكن لماذا أبحث عن اسم زوجك السي الطاهر و نحن هنا نبحث عن حقيقة مقتل جدي؟".

صمتت ولم تجبه، ليلح عبد الله في السؤال:

-"أخبريني لماذا أنا، لماذا تزعمين أن جدي مات مقتولا؟ سئمت من لعبتك، دعيني أعود لعالمي، لأمي وزوجتي وابنتي؟ دعيني وشأني".

كان عبد الله قد بدأ يفقد السيطرة على أعصابه بينما تقف المرأة صامتة أمام ثورته، كأنها كانت تتوقع المشهد، ثم جلست على طوبة تفتت حوافها مسندة ظهرها لجدار الطين:

-"كان جدك من الرجال الذين لا يتكررون، من أولئك الذين كنا ننبهر بهم في القصص الخرافية والأساطير، نعشق بطولاتهم وأخلاقهم في كتب سير الصحابة. جدك إبراهيم كان عالما متفردا من المحبة لكن غدر به أقرب صديق له... لقد كانت طعنة مميتة لا حياة بعدها حتى لو نجا جدك من جراحها".

عاد عبد الله للإصغاء باهتمام:

-"ماذا تقصدين بغدر صديق؟ ومن هو؟ ولماذا ؟".

ردت المرأة بنبرة حزن وأسف دون أن تغير من جلستها البائسة تلك:

-"لقد كان الغادر به .... زوجي... السي الطاهر، أو حجاج الموت كما أوهمهم، لم يقتل القائد الفرنسي ولا طلعت رصاصة واحدة من بندقيته. الرصاصة الوحيدة التي أجاد تصويبها بدقة كانت قلب جدك، القلب الذي هزمه في حبه حتى وهو يتهاوى بنظرة أخيرة كتلك التي كانت للقيصر حين طعنه أقرب صديق، فودعه قائلا: حتى أنت يا بروتوس؟ إذن فليمت القيصر..ومات جدك ، لكن حرقة موته لا تزال جمرة متقدة داخلي ولن أهنأ إلا بثأري من حجاج الموت".

لم يعلق عبد الله، ولا أضافت المرأة شيئا. إن ما كان يتصارع بعقله هو ما حدث لجده و لماذا قتله صديقه وكيف؟!، ثم لماذا تريد هذه المرأة الثأر لجده والقاتل زوجها كما تدعي؟. لم يستطع عبد الله أن يربط الأحداث ببعضها لكنه الآن صار شبه متأكد من أن جده لم يمت في الحرب برصاص الاستعمار كما أوهموهم ، ذلك أن جدته لم تكن تتحدث عنه بافتخار وكبرياء كما تفعل أرامل الشهداء وإنما كثيرا ما كانت تصمت ولا ترد على أسئلة أحفادها المتكررة.

إن مكمن الخطر يكون من عدو خلناه صديقا فوهبناه قطعا منا وأسكناه مساحات القلب ليعيث فيه فسادا. ما هو مؤكد هو أن الصداقة لا تلتقي مع المصالح مهما كانت الظروف! ولا تكون مع الشخص الأناني.

لم يتحمل عبد الله كل ما قالت المرأة وركض هاربا مستنجدا بالباب الصغير، ليجد نفسه في متاهة العرق الكبير، موقعا برجليه الحافيتين أثرا على الرمل الساخن، وشمس الظهيرة تزيده عطشا، لافحة وجهه حرارة فلا يشعر ولا يحس.

كل الاتجاهات متشابهة، وكثبان الرمل لا تنتهي، يدركه الخوف ويستبد به القلق. وإذا بالمرأة الملثمة تطلع من بين الرمل بنفس الهدوء ونفس النبرة الهادئة:

-"أنت داخل متاهة يا حفيد إبراهيم، ستظل تركض بكل الاتجاهات ولن تجد غير الرمل. اخترتك لهذه المهمة ولن تخرج من هذه الأرض إلا وقد عرفت حقيقة مقتل جدك وساعدتني على قراءة هذا المخطوط الذي وجدته بصندوقه".

لا مفر إذن، إما أن يبقى ويساعدها على فك لغز مقتل جده وإما أن يظل تائها بتلك الصحراء دون مخرج أو هدف. انصاع آخر

الأمر وقرر مرافقتها مكرها، كانت أمرته أن يتبعها عابرة به أزقة البيوت القديمة، وأثر أقدامهما تنغرس بطين كان قرب الساقية. وصلا لمنزل ببوابة خشبية عتيقة رائحتها، منقوش مقبضها النحاسي بنجمة أدارته فأزّ، وفتحته فطلع غبار من شقوقه الكثيرة. لم يكن بالمنزل أحد ولا بالقرية كلها، كانا وحدهما يقصان أثر الجد، يفتشان عن حقيقة مقتله وسر ما تركه بذلك المخطوط العجيب.

انعطفا يمينا ليلجا غرفة صغيرة بدت له أجمل ما في ذلك المنزل، بفراش صوفي منبسط على الأرضية، وجلد خروف بصوف أبيض توسطته مسبحة بحبات كبيرة استنتج أنها لغرض الصلاة، نافذة صغيرة بستار شفاف اكتسى بياضه لون الرمل، ثم خزانة كانت وقفت أمامها تشرع بابيها البنيّين لتخرج حقيبة جلدية بأقفال صفراء لامعة ناولته إياها وهو لا يزال يمسك باهتمام مخطوط جده. وقبل أن تتكلم اقتربت منه هذه المرة أكثر وهي تزيح عن وجهها اللثام ليطلع منه وجه كالقمر رغم أثر السنين التي وشمته، وهالة خضراء بيسار خدها زادت وجهها جمالا. قالت:

-"قبل أن أتزوج الطاهر أو حجّاج الموت كما يكنّي نفسه، كان جدك أول شخص التقيت به في رحلة قادتني ووالدي لصحراء توات، دخلنا المزار فاستقبلنا هو ووالدته، رتب لنا غرفة الضيوف فمكثنا أسبوعا أنا ووالدي حرص فيه هو ووالدته على خدمتنا وراحتنا. منذ ذلك الحين تعلقت به وأعجبت برجولته وأخلاقه وقبل أن نغادر كان أومأ لي بأنه سيزورنا ووالدته لخطبتي".

صمتت قليلا تبعثر نظراتها في ذلك المكان كأنما تفتش عنه بين جدران تلك الغرفة التي فجأة اكتست عطر جدّي، قبل أن تضيف :

-"السي الطاهر كان جارنا، وكان ترصدني مذ كنت صغيرة، يكبرني بربع قرن وأكبره بجبال صبر. بعد أيام زارنا جدك إبراهيم ووالدته طالبا يدي من والدي، فرحة العمر التي انتظرت، ومستقبل أميرات كنت تخيلت. والدي لم تسعه الفرحة لأنه سيزوج ابنته لشاب شهم خادم للمزار، كان اختبر أخلاقه أيام استقبالنا وجالسه فوافق دون شروط. يوم نقل فرحته لجاره وصديقه السي الطاهر أحسست غيظا زمّه بين شفتيه ضاغطا

بخبث أسنانه حين صادفته على الرواق باتجاه البوابة توعدني بنظرات أرعبتني ليلتها فلم أنم".

تبتلع المرأة غصة بصدرها، يوجعها التذكار فتتشظى أمامه ناثرة دمعا تشربته أتربة الغرفة قبل أن تواصل:

-"بعد أيام علم والدي بنشاط إبراهيم وأنه مناضل في صفوف الجيش الوطني ضد الاحتلال الفرنسي فزادت محبته له واحترامه. وما كان ليخفي ذلك عن صديقه الذي يروي له أدق التفاصيل.

بخبث كان الطاهر قد تعرف على جدك إبراهيم، دعاه لمنزله ضيفا مرة ، ثم خطيبا لابنة صديقه، فصديقا مقرّبا إلى أن شاركه كل تفاصيل حياته. ولم يشك جدك مرة في نوايا الطاهر أو في عدم صدقه، كان يعامله معاملة الأخ ويطلعه على أماكن تواجده إلى أن جاء اليوم المشؤوم الذي غير حياتي وقلب نظامها رأسا على عقب".

صمتت تكفكف دمعا رغما عنها تسلل لتمسحه بطرف إزارها الأسود. هذه المرة طال صمتها وعبد الله يراقبها بانتظار باقي القصة، حين لاحظت اهتمامه واصلت:

-"الطاهر أوهم إبراهيم أنه انضم معهم للجيش، وعلم أيضا بخطة إبراهيم لقتل القائد الفرنسي، فقد تم ترتيب كل شيء وكل التحركات صارت محسوبة بدقة، ألح الطاهر على مرافقة صديقه في هذه العملية وكان له ذلك. تلك الليلة كان القمر فيها بدرا مكتملا يضيء غابة النخيل و حتى حجارة الوادي.

كان للقائد فيها محطة عبور ليلا هو وزوجته، وتحين إبراهيم وصديقه للفرصة. حين رأياهما يقبلان ظل إبراهيم يصوب بندقيته نحو القائد ينتظر لحظة ابتعاد زوجته عنه كي لا يصيبها ولم يكن يعلم أن بندقية صديقه كانت مصوبة بظهره هو لا بظهر القائد... لحظات ورصاصتان متتابعتان كانتا قد انطلقتا من بندقيتين متقاربتين، الأولى أصابت صدر القائد والثانية استقرت بظهر إبراهيم.... فزعت الغابة ليلتها ... وراح الصديق الوحش راكضا نحو القائد يرسم بخنجره خارطة غدر جارّاً جثته إلى حيث كان الجنود بالجبل ينتظرون نتيجة العملية. حتى طلع عليهم الطاهر ملطخا بالدماء وعلى كتفه جثة القائد المشوهة أوهمهم من خلالها أن القائد قتل إبراهيم حين انتبه إليه فراح هو يدافع عن صديقه بقتله للقائد والتنكيل بجثته، ومنذ ذلك الحين لقب

بحجاج الموت ولم يعلموا أن دماء صديقه كانت تحوم كهامة فوق رؤوسهم طالبة الثأر من الطاهر".

كان عبد الله ينصت بحزن شديد مندهشا من وقاحة الطاهر، الطاهر الذي لا يتحدث معه الناس اليوم إلا وهم يضيفون له لقب "السي" أو "حجاج الموت" كناية بقوته وبسالته ولم يعلموا نذالته. كان الغيظ يمزق قلب عبد الله وهو يشد المخطوط كأنما يضمه لصدره، سألها:

-"ولكن... لماذا قتله؟، و....كيف عرفتِ أنه هو من قتله وليس القائد".

أشارت له بعينيها إلى المخطوط قائلة:

-"في المخطوط كل القصة .. لم أفك شفراتها وحدي وإنما زارني منذ سنوات رجل على هيئة راعي غنم، كان يسأل عن فاطمة بنت الزواوي وحين عثر علي سلمني هذا المخطوط وبعض الأغراض التي كانت لجدك وقال: هذا ما تركه لك المرحوم إبراهيم وطلب مني أن أسلمه لك بيدي. تفاجأت يومها فقد كنت أظن كما أهل القرية أن إبراهيم مات في حينه ولم أعرف أن ذلك الراعي

الذي زارني كان قد أسعفه ليعيش بعدها شهرين كان خط فيها ما حدث قبل أن يموت كمدا ووجعا".

الصداقة الحقيقية هي تلك التي يكون الواحد فيها سندا للثاني لا تلك التي يترصد فيها الخائن صديقه ليغدر به عند أول فرصة يهديها له القدر.

لم يتحمل عبد الله كل تلك القصص التي نزلت على رأسه حبات برَد ظلت تقرع جمجمته، نهض مسرعا وقد أحس بصداع رهيب خرج من ذلك المنزل الغريب تلاحقه فاطمة كشبح عند كل زقاق يعبره، تتجلى له امرأة بلا ملامح ، من الجدران الطينية تطلع، من الأبواب، من الواحة التي عبرها مذعورا كلما أبصر طيفها يمّحي أمامه ليظهر بنفس الصورة وقد خال نفسه قطع أميالا. حتى صار بمرتفع كثيب رملي، أنفاسه متقطعة وصوت يأتي من أعماقه كأسطوانة لا تتوقف: "عد إلى هنا...أيها المعتــووه"، ترعبه كلمة معتوه فيضرب رأسه بكفيه يهزه يمينا وشمالا: "لست معتوها....لست معتوها.."فتضحك المرأة الشبح بعد إن اختفت تماما عن نظر عبد الله وترتفع قهقهاتها بذلك الفضاء الرهيب وهي تردد: "المعتـــــوه...".

لطرق خفيف انتبهت بشرى ، كان نبيل زوجها قد عاد من عمله يحمل بين يديه مجموعة كتب أحضرها لها، ما إن رأته حتى ابتسمت واضعة الرواية على الطاولة، سألها وهو ينزع جاكيته ويعلقها بالمشجب المثبت خلف الباب:

-"ماذا تقرئين؟".

ردت كَمَن يخرج لتوه من معركة:

-"الرواية التي أحضرتها لي آخر مرة.... أووف لو تدري كم دوّخني هذا النص الرهيب... لقد أصابني بالدوار".

جلس بجانبها كطفل ينتظر أن تسرد عليه محتوى الرواية، لكنها مدتها إليه وهي تقول بدلال:

-"لن أخبرك شيئا عنها، أريدك أن تستمتع بقراءتها وأن تعيش جنونها وصداعها، وأن تفعل بك ما فعلته بي".

ازداد فضوله فمد يده ليتفحص غلافها قبل أن ينطق بذهول وتعجب متهجيا عنوانها:

" الـمَـ...ـعتُـ.....ــــوه..؟!"

EL AMIR
MAISON D'ÉDITION